بسم الله الرحمن الرحيم

الملتقى الوطني حول:

اتجاهات التفسير في التراث التفسيري الجزائري معالم ومقاصد

المحور الرابع:

التفاسير الجزائرية المعاصرة أعلامها واتجاهاتها

عنوان المداخلة:

"ملامحُ تفسيريّةٌ في كتاب: (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبيّ"

"Interpretive Features in the book of: (The Quranic Phenomenon) of Malik Bin Nabi".

الطالب: يونس لقصير

lekciryounes@gmail.com

أ.د. شبايكي الجمعي

djemai111@yahoo.fr

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة–

Emir Abd Elkader University

For Islamic Sciences –Constantine–

الملخص:

هذه الدراسة تتعلق بعلم من أعلام الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي في عصرنا الراهن؛ إذ تبحث الملامح التفسيرية في كتاب: (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي، وما هي أهم المميزات والأساليب التي وظفها في بيان معاني الآيات الواردة فيه. وقد خلصت الدراسة إلى نتائج من أهمها: عناية مالك بن

نبي بتفسير القرآن الكريم، وسعيه لتقديم رؤية تجديدية في المنهج التفسيري، إضافة إلى تنوع في أساليب وطرق استخراج المعاني من الآيات القرآنية التي وظفها في معالجة القضايا الفكرية في كتابه.

الكلمات المفتاحية: المنهج؛ مالك بن نبي؛ التفسير؛ الظاهرة القرآنية.

ABSTRACT:

This study is related to one of the most known scholars in the islamic world nowadays, for it explores the Explanatory Features in the book of: (The Quranic Phenomenon) of Malik Bin Nabi, and the most methods he used in clearing the meaning of the verses (ayat) mentioned in the book. The study came to a conclusion that is : the great attention paid

by Malik Bin Nabi in interpreting the Holy Quran, and his striving to present a new vision when it comes to the method of interpretation, in addition to the diverse methods and ways of exttracting the meanings from the quranic verses that he used in treating the intellectual issues in his book.

keywords: Method**;** Malik Bin Nabi**;** intrepretation**;** The Quranic Phenomenon.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فلقد أكرم الله هذه الأمة بالقرآن العظيم، فالمسلمون يستنيرون بنوره، ويتلونه ويتدبرونه ويعملون بما فيه؛ لينالوا بذلك السعادة والفلاح، والخير والنجاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧] .

ولقد حظي كتاب الله عز وجل بالعناية والرعاية على مر القرون والأزمان، فما فتئ علماء الإسلام على مر العصور يعكفون على تفسيره وتفهمه وتدبره، واستخراج حكمه وأحكامه. وعلماء الجزائر كغيرهم من العلماء قد اهتموا قديما وحديثا بتفسير كتاب الله عز وجل وبيان معانيه، حيث أن أعلاما جزائريين كبارا قد تركوا مؤلفات في ذلك: كالإمام الثعالبي وتفسيره "الجواهر الحسان"، وعبد الحميد بن باديس وتفسيره "مجالس التذكير"...وغيرهما من العلماء.

وقد جاء هذا البحث لدراسة نموذج من أعلام الجزائر المعاصرين، وأحد نوابغ المفكرين، ممن عُنُوا بالكتابة في قضايا الأمة، وسبل نهضتها وعوامل بعث حضارتها، وهو المفكر مالك بن نبي رحمه الله، وبرغم كونه لم يتعرض للكتابة في تفسير القرآن الكريم سورة سورة وآية آية، إلا أن كتبه لا تخلو من تأملات في معاني بعض الآيات، أو استنباط لبعض أحكامها.

وقد وقع اختياري على كتابه "الظاهرة القرآنية"، حيث أحاول إبراز حجم المادة التفسيرية وقيمتها في الكتاب، وبيان الأساليب التي انتهجها مالك بن نبي رحمه الله تعالى في تناوله لبعض معاني الآيات في ثنايا معالجته للقضايا الفكرية؛ وبخاصة كون الكتاب المذكور قد وضعه مؤلفه لاقتراح إصلاح مناسب للمنهج القديم في تفسير القرآن الكريم.

أهمية موضوع البحث: تكمن أهمية موضوع البحث في الكشف عن قيمة المادة التفسيرية في كتاب "الظاهرية القرآنية"، وأساليب توظيفها في التنظير والتقعيد من قبل المفكر مالك من نبي رحمه الله.

إشكالية البحث: يمكن صياغة إشكالية هذا البحث على شكل السؤال التالي: ما طبيعة وقيمة المادة التفسيريّة في كتاب "الظاهرة القرآنية"، وما هي الأساليب المتبعة في توظيفها بغرض توضيح أو إذكاء النظرية المعرفية لمالك بن نبيّ في كتابه؟.

وسأسعى من خلال هذا البحث إلى الإجابة على الأسئلة الفرعية التالية:

- ما الهدف من تأليف كتاب الظاهرة القرآنية؟.
- ما هي الأهمية العلمية لكتاب الظاهرة القرآنية؟.
- كيف وظف مالك بن نبي تفسير الآيات القرآنية في صياغة نظريته المعرفية في كتابه الظاهرة القرآنية؟.
- ما هي أهم الملامح المنهجية لمالك بن نبي في بيان معاني الآيات القرآنية؟.

عنوان الدراسة:

جاءت هذه الدراسة موسومة بـ: "ملامحُ تفسيريّةٌ في كتاب: (الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبيّ".

أهداف البحث: أسعى من خلال هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- التعريف بجوانب من اهتمام المفكر مالك بن نبي بالتفسير.
- إبراز قيمة المادة التفسيريّة في كتاب "الظاهرة القرآنية"، وتلمس الملامح المنهجية المتبعة في توظيف تلك المادة.

منهجية البحث: المنهج المتبع في هذه الدراسة هو: المنهج الوصفي بالدرجة الأولى؛ وذلك من خلال جمع المادة التفسيرية في كتاب "الظاهرة القرآنية"؛ واستقراء الآيات المفسَّرَة فيه، كما لامس البحث المنهج التحليلي من خلال محاولة استجلائه الملامح المنهجية لتلك المادة التفسيرية.

الدراسات السابقة: هناك كثير من الدراسات السابقة حول كتاب الظاهرة القرآنية تناولت الجوانب الفكرية والفلسفية، لكن لم أقف على أي دراسة عُنِيت بجمع المادة التفسيرية، وبيان الملامح المنهجية وطريقة توظيفها في كتاب: "الظاهرة القرآنية".

خطة البحث:

جاء البحث مقسما إلى ثلاث محاور:

المحور الأول: ذكرت فيه تعريفا موجزا بالمفكر مالك بن نبي وبكتابه "الظاهرة القرآنية"، وقسمته إلى مطلبين، فالمطلب الأول: لترجمة المفكر مالك بن نبي وذكر موجز حياته العلمية والفكرية، والمطلب الثاني: في التعريف بكتاب "الظاهرة القرآنية" من خلال ذكر الأسباب والهدف من تأليفه، وكذا ذكر قيمة هذا التأليف.

المحور الثاني: بينت فيه عناية مالك بن نبي بالقرآن الكريم وتفسيره، وقد ضمنته مطلبين، فالمطلب الأول: لبيان القراءة النقدية لكتب التفسير السابقة، والمطلب الثاني: لذكر أهم معالم الفكر التجديدي في التفسير عند مالك بن نبي.

المحور الثالث: لبيان الملامح المنهجية لمالك بن نبي في التفسير من خلال كتاب "الظاهرة القرآنية". وقد قسمته إلى ستة مطالب: فالمطلب الأول بعنوان: اعتماده القرآن الكريم شاهدا على المعنى الراد في الآيات، والمطلب الثاني: اعتماده الحديث النبوي شاهدا على المعنى الراد في الآيات، والمطلب الثالث: لبيان توظيفه أسباب النزول في بيان معنى الآية، والمطلب الرابع: لبيان توظيفه الأساليب البلاغية في فهم الآيات، والمطلب الخامس: في توظيفه العلوم والنظريات الحديثة، المطلب السادس: لبيان استخدامه أسلوب الإجمال ثم التفصيل.

ثم ختمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج والتوصيات، يليها ذكر لقائمة مصادر البحث ومراجعه.

المبحث الأول: تعريف موجز بمالك بن نبي[1] وبكتابه "الظاهرة القرآنية"

المبحث الأول: تعريف موجز بالمفكر مالك بن نبي

الفرع الأول: اسمه ومولده ودراسته

هو مالك بن نبي أحد رواد الفكر الإسلامي المعاصر، ولد في مدينة قسنطينة سنة 1323هـ /1905م، من عائلة متدينة محافظة، درس المرحلة الابتدائية بمدينة تبسة حيث أصول والدته، ثم درس بقسنطينة ما بين 1921-1925م بالمعهد الاسلامي المختلط، ثم انتقل إلى العاصمة الفرنسية باريس سنة 1930م؛ لإكمال دراسته في معهد الهندسة، أين تخرج مهندسا ميكانيكيا. وعكف بعد ذلك على دراسة كتب الشريعة والحضارة الإسلامية، فنهل منها وغاص في بحارها؛ مما أثمر تلك الإبداعات الفكرية المتميزة[2].

الفرع الثاني: رحلاته ووظائفه

كانت له جملة من الرحلات إلى دول عديدة، فقد أكمل دراسته في باريس، كما سافر إلى مكة المكرمة، وانتقل في سنة 1956م إلى القاهرة، وأقام بها سبع سنوات، أصدر خلالها معظم آثاره وأعماله. كما كان رحمه الله من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، كما تولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد بالحكومة الجزائرية، وذلك في سنة 1964م[3].

---

[1] ينظر هذه الترجمة في: تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر: الجزائر، دط، 2007م، ج10، ص591. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت، ط2، 1400هـ/1980م، ص282. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين: بيروت، ط15، 2002م، ج5، ص266.

[2] تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، ج10، ص591. أعلام الجزائر، المصدر السابق، ص282.

[3] معجم أعلام الجزائر، المصدر السابق، ص282. الأعلام، المصدر السابق، ج5، ص266.

الفرع الثالث: مؤلفاته وآثاره[4]

لمالك بن نبي رحمه الله إنتاج غزير في الفكر والفلسفة وأسباب الحضارة، حيث تربو مؤلفاته على الثلاثين كتابا باللغة الفرنسية، منها ما ألفه قبل الثورة الجزائرية وفي أثناء الثورة، والباقي بعدها. وقد ترجم الكثير من هذه الكتب إلى اللغة العربية. ومن هذه المؤلفات على سبيل الذكر:

- شروط النهضة 1948م.
- وجهة العالم الإسلامي 1954م.
- مشكلة الثقافة 1959م.
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة 1959م.
- الظاهرة القرآنية 1947م.
- آفاق جزائرية 1962م.
- إنتاج المستشرقين 1968م.

الفرع الرابع: وفاته

بعد رحلة عظيمة مع الكتابة والمحاضرة في الفكر والفلسفة توفي مالك بن نبي بالجزائر سنة 1393هـ/1973م[5].

المطلب الثاني: تعريف موجز بكتاب "الظاهرة القرآنية"

الفرع الأول: الهدف من تأليفه

لقد أراد مالك بن نبي إعطاء رؤية جديدة للدراسات والتفاسير القرآنية، من خلال الدخول إلى ما سماه عالم الظاهرة القرآنية، ورصدها والبحث فيها بأدوات العصر ونتاجه العلمي والفكري[6]؛ ولذلك فقد

[4] تاريخ الجزائر الثقافي، المصدر السابق، ج10، ص592. معجم أعلام الجزائر، المصدر السابق، ص282.
[5] معجم أعلام الجزائر، المصدر السابق، ص282. الأعلام، المصدر السابق، ج5، ص266.

أفصح عن هدفه في أول كتابه، وبين بـ "أن جوهر موضوعه هو تحقيق منهج تحليلي في دراسة الظاهرة القرآنية؛ من أجل الوصول من الناحية العملية إلى هدف مزدوج هو:

1- إتاحة فرصة للشباب المسلم التأمل الناضج في الدين.

2- اقتراح إصلاح مناسب للمنهج القديم في تفسير الكريم"[7].

الفرع الثاني: أسباب التأليف[8]

فمن الأسباب التي دفعت بمالك بن نبي إلى تأليف هذا الكتاب هو أن كثيرا من الشباب المسلم وبخاصة المثقفون والأدباء قد تأثروا بالثقافة الأوروبية وكتابات المستشرقين المعتنين عناية بالغة باللغة العربية، حيث وجه هؤلاء المستشرقون تلك الكتابات للطعن في الإسلام ورجاله.

كما أنه كان يستشعر في زمانه فقدان المسلم للسليقة اللغوية للعربي قبل الإسلام وإبّانه، وقد أضحى مضطرا الى أن يدرس القرآن في صورة أخرى وبوسائل مختلفة عن التذوق البياني الفطري والتلمّس الجمالي والإبداعي في صدر الإسلام.

الفرع الثالث: أهمية الكتاب

لقد جمع كتاب "الظاهرة القرآنية" بين أصالة القديم وتجديد المعاصر، فمباحثه وموضوعاته المطروحة قديمة، لكن المؤلف يناقشها بآليات وأساليب علمية ومنطقية حديثة؛ ليكشف عن إعجاز القرآن الكريم، وأنه ظاهرة تتجدد في كل زمان ومكان.

---

[6] الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء، رابح طبجون، مجلة المعيار، كلية: أصول الدين، جامعة: الأمير عبد القادر بقسنطينة، عدد: 46، مارس 2019م، مجلد:2، ص163.

[7] الظاهرة القرآنية،، مالك بن نبي، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر: دمشق، ط4، 1420هـ/2000م، ص53.

[8] عرض موجز لكتاب "الظاهرة القرآنية" لمالك بن نبي، عبد الله الحربي، عن ملتقى أهل التفسير، https://vb.tafsir.ne، تاريخ التصفح: 2022/03/06م، 22:30.

وقد عبر عن قيمة الكتاب ومكانته الفكرية الشيخ محمود شاكر[9] حيث يقول في تقديمه له: "...وإنه لعسير أن أقدم كتاباً هو نهج مستقل، أحسبه لم يسبقه كتاب مثله من قبل. وهو منهج متكامل يفسره تطبيق أصوله، كما يفسره حرص قارئه على تأمل مناحيه..."[10].

ثم يضيف قائلا: "...ثم هو يستمد أصوله من الفحص الدائب في تاريخ النبوة وخصائصها، ثم في سيرة رسول الله، بأبي هو وأمي، منذ نشأته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى. ثم في هذا البلاغ الذي جاء ليكون بنفسه، دليلاً على صدق نفسه، أنه كلام الله، الفارق لكلام البشر من جميع نواحيه"[11].

ومما يبين هذه المكانة العلمية والفكرية للكتاب؛ أنه قد حظي ولا يزال بجملة من الدراسات والبحوث تناسب مقامه وأهميته، حيث تناولت هذه البحوث والدراسات بالتحليل والمناقشة جوانب الكتاب الفكرية والفلسفية، بحيث تعددت العناوين واختلفت زوايا التحليل والنقد، ومن أمثلة ذلك على سبيل الذكر:

- الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء[12].
- إعجاز النص القرآني في فكر مالك بن نبي – الظاهرة القرآنية–[13].

---

[9] **محمود بن محمد شاكر**: مفكر وأديب ولغوي مصري، ولد بالاسكندرية سنة 1909م، درس بمصر ثم سافر إلى الحجاز، وكان عضوا في مجمع اللغة العربية، حصل على العديد من الجوائز والأوسمة منها: جائزة الملك فيصل العالمية، له العديد من المصنفات منها: القوس العذراء، مع المتنبي، أباطيل وأسمار. توفي سنة 1997م. ينظر: إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام ، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر: بيروت، ط1، 1999م، ص282.

[10] الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر: دمشق، ط4، 1420هـ/2000م، ص17.

[11] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص18.

[12] الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء، المصدر السابق، مجلد: 23، ص161.

[13] إعجاز النص القرآني في فكر مالك بن نبي – الظاهرة القرآنية–، زينب بوتشيش، مجلة: أمارات، كلية: الآداب والفنون، جامعة: حسيبة بن بوعلي – الشلف–، العدد:1، مارس 2018م، مجلد: 2، ص73.

المبحث الثاني: عناية مالك بن نبي بالقرآن الكريم وتفسيره

يعد مالك بن نبي من رواد الفكر الإسلامي الإصلاحي المعاصر المتمسكين بالثوابت والقيم، المعتنين بدراسة القرآن الكريم باعتباره مرجعا للفكر ومحورا للإصلاح، المثبتين بالأدلة والبراهين العقلية والعلمية مصدرية القرآن الإلهية.

ولقد كان لتفسير القرآن الكريم وبيان معاني آياته القدح المعلى في هذا الاعتناء بالقرآن الكريم، ويتضح ذلك من خلال أمرين أساسيين اثنين ذكرهما في كتابه: "الظاهرة القرآنية"، أولهما: قراءته النقدية لبعض التفاسير السابقة، والأمر الثاني: إعطاؤه منهجا تجديديا لتفسير القرآن الكريم.

المطلب الأول: القراءة النقدية لكتب التفسير السابقة

لقد كان للمفكر مالك بن نبي رحمه الله اهتمام بالغ بالتفسير، واطلاع واسع على المؤلفات التفسيرية القديمة والحديثة؛ لذلك فهو كثيرا ما يشير إلى ما جاء فيها من معان للآيات. ومع هذا الاطلاع الواسع فقد كانت له تلك النظرة الفاحصة النقدية.

فقد سجل ملاحظاته على التفاسير القديمة التي يرى بأنها تعتمد "على الشعر الجاهلي بوصفه حقيقة لا تقبل الجدل"[14]، وبأن "ضرورات التطور تقضي بتعديل منهج التفسير القديم تعديلا يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث"[15].

كما انتقد بعض التفاسير المعاصرة، مثل تفسير طنطاوي جوهري الذي بالغ– بحسب رأيه– في تفسير الآيات تفسيرا علميا؛ ما جعله أشبه بدائرة المعارف منه بالتفسير، كما انتقد تفسيري: رشيد رضا[16]

---

[14] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص57.

[15] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص57.

[16] **محمد رشيد رضا**: مفسر ومصلح، ولد سنة 1865م في بيت دين وصلاح بالقلمون قرب طرابلس بلبنان، حيث حفظ القرآن وتعلم العلوم الشرعية، تأثر بالشيخ محمد عبده، فسافر إلى مصر للقائه سنة 1898م، ليؤسسا معا مجلة المنار التي ذاع صيتها في ربوع العالم الإسلامي، له العديد من المؤلفات منها: تفسير المنار، الوحدة الإسلامية. توفي سنة 1935م. ينظر: رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته، أحمد الشرباصي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دط، 1389هـ/1970م، ص13 وما بعدها.

وشيخه محمد عبده[17]، اللذان حاولا التجديد إلا أنهما – بحسب رأيه- لم يعدلا طريقة التفسير القديم تعديلا حقيقيا[18].

وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "فالتفسير الكبير الذي ألفه الشيخ طنطاوي جوهري إنتاج علمي أشبه بدائرة معارف، ولا ينطوي على أقل اهتمام بتحديد منهج، أما تفسير الشيخ رشيد رضا الذي اتبع فيه إمامه الشيخ محمد عبده فلم يضع هو الآخر هذا المنهج، فقد كان همه أن يخلع على المنهج القديم صبغة عقل جديد. ومع أنه لم يعدل طريقة التفسير القديم تعديلاً جوهرياً، فإنه قد خلق في الصفوة المسلمة التي تعشق التجديد الأدبي اهتماماً بالنقاش الديني"[19].

المطلب الثاني: أهم معالم الفكر التجديدي في التفسير عند مالك بن نبي

قدم مالك بن نبي فكرا تجديديا في مجال تفسير القرآن الكريم، يراه مناسبا ومواكبا للتطور الفكري والعلمي والاجتماعي الحاصل في العصر الراهن، وتقوم معالم هذا الفكر التجديدي على ركائز أو معالم من بينها ركيزتين أساسيتين هما: توظيف طرق التحليل النفسي، توظيف الإصلاح الاجتماعي.

الفرع الأول: توظيف طريقة التحليل النفسي

حيث يرى مالك بن نبي بأن التحليل النفسي الموضوعي لتركيب الآية القرآنية في عصرنا الراهن قد حل محل صفة الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم الذي كان العربي الجاهلي يتذوقها فطريا بحكم السليقة

---

[17] **محمد بن عبده بن حسن بن خير الله**: ولد في محافظة البحيرة بمصر سنة 1266هـ/1849هـ ، حفظ القرآن بمسقط رأسه، ثم التحق بالأزهر، وترقى في الوظائف العلمية حتى صار شيخا للأزهر، تأثر بشيخه جمال الدين الأفغاني وأسسا معا جريدة "العروة الوثقى" في باريس، له الكثير من المؤلفات في التفسير والوعظ والإصلاح منها: تفسير جزء عم، رسالة التوحيد. توفي سنة 1323هـ/1905م. ينظر: منهج المدرسة العقلية في التفسير، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1403هـ/1983م، ص124.

[18] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص58.

[19] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص58.

العربية، "كعمر رضي الله تعالى عنه أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ[20] في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده"[21].

وبحسب مالك بن نبي فإن "المسلم اليوم قد فقد فطرة العربي الجاهلي، وإمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي، وعلى الرغم من هذا فإن القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز؛ لأنه ليس من توابعه بل من جوهره. وإنما أصبح المسلم مضطرا إلى أن يتناوله في صورة أخرى وبوسائل أخرى، فهو يتناول الآية من جهة تركيبها النفسي الموضوعي، أكثر مما يتناولها من ناحية العبارة، فيطبق في دراسة مضمونها طرقاً للتحليل الباطن"[22].

ومن النماذج التطبيقية التي قدمها مالك بن نبي لما اقترحه من طريقة التحليل النفسي؛ ما ذكره في معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [القصص: 86].

فقد حاول من خلال ذلك عن شبهة بعض المستشرقين؛ التي تَدَّعي بأن النبي صلى الله عليه وسلم وخلال فترة عزلته الطويلة في غار حراء قبل نزول الوحي، "كان يغرق في تأمل عميق في المشكلة الدينية يقوده نوع من إلهام الدعوة المستقبلة"[23]. ومقصود هذه الدعوى أن نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم كانت تستشرف وتتطلع إلى تكليف بالدعوة والرسالة.

والآية الكريمة – حسب ما يراه مالك بن نبي– قد بينت الحالة النفسية للنبي عليه الصلاة والسلام، وأنه لم يكن يتطلع أو يرجو أن يوحى إليه، و"لم يكن لديه أدنى أمل في أن يقوم بدور في دعوة من أجله هو، لا قبل عزلته ولا خلالها"[24].

---

[20] **أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ**: أحد أدباء وبلغاء العصر العباسي، ولد في البصرة سنة 165هـ، أخذ عن النظام وعرف بالاعتزال وعلم الكلام، من أشهر مؤلفاته: البيان والتبيين، البخلاء، الحيوان. توفي سنة 255هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1402هـ/1982م، ج11، ص526.

[21] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص67.

[22] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص67.

[23] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص118.

[24] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص119.

الفرع الثاني: توظيف الإصلاح الاجتماعي

حيث يركز مالك بن نبي كثيرا على التفسير الاجتماعي الذي يعنى بإصلاح المجتمع وتشخيص عيوبه العقدية والسلوكية ثم علاجها في ضوء القرآن الكريم، ولذلك فقد عقد في كتابه: "الظاهرة القرآنية" عنوانا سماه: "القيمة الاجتماعية لأفكار القرآن"، تعرض فيه لمشكلة اجتماعية خطيرة عانت منها البشرية منذ القدم وإلى يوم الناس هذا، هذه المشكلة هي: مشكلة الخمر. وكيف أن القرآن الكريم قد عالج إسراف العرب قبل الإسلام في تعاطي الخمر، وكيف تدرجت آياته الكريمة شيئا فشيئا حتى وصلت إلى التحريم النهائي.

وفي ذلك يقول مالك بن نبي: "فهناك مثلاً مشكلة في تاريخ الإنسانية لا تفتأ تواجهها وخاصة في هذه الأيام، تلك هي: (مشكلة الخمر). والحق أنه للمرة الأولى في التاريخ الإنساني وُوجِهَت هذه المشكلة في القرآن؛ وحلت بطريقة معينة، فكيف كان ذلك؟[25]".

ثُمَّ يوضح ذلك من خلال سرد التدرج الذي سلكه القرآن في تحريم الخمر قائلا: "ها هو ذا التخطيط النفسي والتشريعي لهذا القرار الذي حدث للمرة الأولى في تشريع أحد المجتمعات الإنسانية:

أولاً: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ [البقرة 219]، وهنا وقفة أولى.

وثانياً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: 43]، وهذا هو الموقف الثاني.

ثالثاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [المائدة: 90]"[26].

---

[25] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص297.

[26] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص297.

ليخلص إلى أنه بهذا المسلك التشريعي التدريجي العجيب؛ استطاع القرآن الكريم أن يواجه هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة، بحيث "إن الإحصاء في البلاد الإسلامية، حتى المتدهورة منها، يدلنا على قلة تعاطي الخمر فيها، بينما تعاني الإنسانية منها- بكل أسف- في البلاد المتحضرة"[27].

[27] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص298.

المبحث الثالث: الملامح المنهجية لمالك بن نبي في التفسير من خلال كتاب "الظاهرة القرآنية"

فهذا المبحث هو بيت القصيد ولب هذه الدراسة، حيث يعنى ببيان الطريقة التي سلكها المؤلف في استخراج المعاني من الآيات القرآنية التي وظفها كشواهد وأدلة يعضد بها أفكاره، وكنماذج يسعى من خلالها إلى الوصول إلى هدفه من وراء تأليفه.

ومن المعلوم أن مالك بن نبي رحمه الله لا يقصد من وراء مؤلفه هذا تفسير القرآن سورة سورة، أو آية آية كما هو دأب المفسرين عادة، وإنما وقع له الكلام على بعض معاني الآيات في ثنايا بحثه لجملة من القضايا الفكرية التي تمحور حولها موضوع الكتاب.

وبتتبع ذلك يمكن الوصول إلى جملة من الطرق والأساليب التي استخدمها مالك بن نبي رحمه الله، والتي توضح الملامح التفسيرية في كتاب: "الظاهرة القرآنية". وفيما يلي بيان لبعض هذه الأساليب والطرق.

المطلب الأول: اعتماده القرآن الكريم شاهدا على المعنى المراد في الآيات

إذ خير ما يفسر به القرآن هو القرآن نفسه؛ لأن الذي أنزله سبحانه أعلم بمقاصده ومعانيه، ولهذا كان يعتمده الصحابة والتابعون والأئمة بعدهم، فتفسير القرآن بعضه ببعض أولى التفاسير ما وجد إليه السبيل[28]، فما اختصر في موضع بُسِط في موضع آخر، وما جاء عاما في آية قد يأتي تخصيصه في آية أخرى، وما أُطلِق في موضع قُيِّد في موضع آخر، وما أجمل في موضع يأتي بيانه في موضع آخر[29].

وقد اعتمد ذلك مالك بن نبي من خلال جمعه بعض الآيات الدالة على المعنى المراد في سياق بحثه لقضية معينة لها تعلق بمعنى الآيات، ومن أمثلة ذلك ما ذكره من آيات كريمات في سياق حديثه عن التفريق بين المعرفة البشرية النفسية للنبي صلى الله عليه وسلم، وبين الوحي القرآني المنزل عليه، حيث يقول: "فإن القرآن يثبت تماماً في النطاق الزمني هذه النسبة بين المصدرين في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

---

[28] ينظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم شمس الدين أبو بكر محمد بن أيوب الزرعي، تح: سيد إبراهيم، دار الحديث: القاهرة، ط1، 1412هـ/1992م، ص396.

[29] ينظر: التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، دار النفائس: عمان، ط1، 1437هـ/2016م، ج1، ص123.

﴿ مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فقوله ﴿ مَا كُنتَ ﴾ أي: قبل غار حراء، والنبي في تلك الفترة لم يكن لديه سوى معلوماته الشخصية، وهي معلومات تبدو لنا عديمة الصلة بالوحي القرآني، إذا ما أعطينا الآية المذكورة كل معناها التاريخي..."[30].

ثم يشحذ المؤلف الآيات التي يراها تخدم المعنى المراد فيقول: "وفضلاً عن ذلك فإن القرآن قد دأب على تذكيره، وتأكيد هذا الفصل في آيات كثيرة، وهاك آية تؤدي ما أدته الآية الأولى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]..."[31].

ويواصل المؤلف استعراضه للآيات التي تدور حول المعنى نفسه والموضوع ذاته فيقول: "وإن القرآن ليلح كثيراً في هذه النقطة، كما يمكن أن ندركه في الآية ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [طه: ٩٩].

وفي آيات أخرى يبدو القرآن وكأنما يشير إلى تحديد مقصود للوحي في نقطة معينة بالذات، كأنما ليعلق ضمير النبي واهتمامه بأشياء لم تكن بعد قد أوحيت، أو لم تنزل عليه قط، وهاك مثلاً على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ ﴾ [القصص: 28][32]، ففي هذه الآية يمضي الوحي القرآني ليس أبعد من الفكرة المحمدية فحسب، ولكن أبعد مما قد أوحي فعلاً.

ومن الممكن أن نذكر آيات كثيرة، ولا سيما الآية: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وهي تؤدي المعنى نفسه..."[33].

---

[30] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص170.

[31] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص170.

[32] وقع سهوا أن هذه الآية هي: 28 من سورة القصص، وإنما هي الآية: 78 من سورة غافر.

[33] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص171.

المطلب الثاني: اعتماده الحديث النبوي شاهدا على المعنى المراد في الآيات

لاشك أن تفسير القرآن بالأثر وبخاصة المرفوع من أشرف أنواع التفسير؛ فالسنة شارحة للقرآن وموضحة له؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وظيفته تبليغ القرآن وبيان أحكامه؛ إذ لا أحد من خلق الله أعلم بمراده سبحانه من النبي صلى الله عليه وسلم، ولذا كان الصحابة رضي الله عنهم يرجعون إليه فيما يُشْكِل عليهم فهمه من كتاب الله عز وجل.

ومن أمثلة ذلك ما أورده المؤلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤]، حيث يقول رحمه الله: "يحدثنا المفسر جلال الدين السيوطي[34] فيقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم عَقَّب على ذلك قائلا: "**لاَ أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ**"[35].

وانطلاقا من ذلك يضيف قائلا: "فمن هذا نرى أن النبي كان يمكنه أن يكتفي بالمقابلة الباطنية المشار إليها آنفا، على الأقل فيما يتصل باقتناعه الشخصي. ولكن كان عليه أيضا أن يُشْبِع حاجةَ الآخرين إلى الاقتناع، فكأنما لذلك قد استخدم المنهج الثاني عندما كان يتصدى في إحدى المناظرات العامة؛ لتحقيق قيمة الوحي بصفة موضوعية بالنسبة لحقيقة مكتوبة في الكتب السابقة"[36].

---

[34] **جلال الدين عبد الرحمن ابن كمال الدين أبي بكر بن عثمان الخضيري السيوطي**: من العلماء الموسوعيين، ولد بالقاهرة سنة 849هـ، حفظ القرآن دون سن الثامنة، وحفظ العديد من المتون في أصول العلوم، وطلب العلم على ثلة من المشايخ كالشمني والكافياجي وجلال الدين المحلي، برع في فنون عديدة، ووصلت مصنفاته نحو الستمائة مصنفا، منها: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تاريخ الخلفاء، تدريب الراوي. توفي سنة 911هـ. ينظر: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي، دار صادر: بيروت، ط1، 2001م، ص90.

[35] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص159.

[36] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص159. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تح: عبد الله بن عبد المحسن بن تركي، مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية: القاهرة، ط1، 1424هـ/200.م، ج7، ص705.

والحديث ذكره السيوطي عن قتادة مرسلا، وأخرجه الضياء في المختارة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ}: "لَمْ يَشُكَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَسْأَلْ"**. ينظر: الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تح: عبد الملك بن دهيش، دار خضر: بيروت، ط1، 1420هـ/2000م، ج10، ص94.

المطلب الثالث: توظيف أسباب النزول في بيان معاني الآية

لا شك أنه مما يعين على فهم آي القرآن فهما صحيحا هو معرفة سبب نزول الآية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[37]: "ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب"[38]، فلا يمكن تفسير السورة أو الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها[39].

وقد وظف مالك بن نبي ذلك حيث يقول: "...وتلك على ما نظن المناسبة التي لأجلها نزلت سورة يوسف، فكما قرر الزمخشري[40] نزلت هذه السورة عقب نوع من التحدي الذي جابهه به علماء بني إسرائيل، لقد سألوه صراحة عن قصة يوسف فنزلت"[41].

المطلب الرابع: توظيف الأساليب البلاغية في بيان معاني الآيات

حيث أشار المؤلف إلى بعض اللطائف البيانية والأساليب البلاغية في بعض الآيات القرآنية، ومن أمثلة ذلك:

---

[37] **ابن تيمية شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني**: ولد سنة 661هـ، كان أعجوبة الزمان في التوسع في المنقول والمعقول، أوذي وامتحن مرارا، وتوفي مسجونا بسجن القلعة بدمشق سنة 728هـ، له مؤلفات كثيرة سارت بها الركبان منها: مجموع الفتاوى، درء تعارض العقل والنقل. ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الجيل: بيروت، دط، 1414هـ/1993م، ج1، ص144.

[38] مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تح: عدنان زرزور، [دون دار نشر]، ط2، 1392هـ/1972م، ص47.

[39] الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون: بيروت، ط1، 1429هـ/2008م، ص71.

[40] **أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري المعتزلي**: يلقب جار الله لأنه جاور بمكة زمانا، ولد سنة 467هـ بزمخشر قرية من قرى خوارم، برع في النحو والبلاغة والتفسير وأنساب العرب، وكان متظاهرا بالاعتزال داعية إليه، له التصانيف البديعة منها: الكشاف في التفسير و الفائق في غريب الحديث و أساس البلاغة وغير ذلك، توفي ليلة عرفة سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة. ينظر: طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، دار النوادر: الكويت، دط، 1421هـ/2010م، ص120.

[41] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص159.

وقد أورد الزمخشري سبب نزول سورة يوسف قائلا: "فقد روي أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟، وعن قصة يوسف؟...". ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان: الرياض، ط1، 1418هـ/1998م، ج3، ص250.

1- الالتفات[42]: ومثاله ما أورده مالك بن نبي في سياق حديثه عن معاني قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يونس: ٢٢].

وقد أشار المؤلف إلى ما يسميه علماء البلاغة بـ: "أسلوب الالتفات"، مستدلا به على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن هذا القرآن هو كلام الله سبحانه المعجز؛ لكون النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن له أن يغير أو يعدل شيئا منه بعد نزوله.

وفي ذلك يقول رحمه الله: "ففي هذه الآية نجد أن الانتقال غير عادي من ضمير(كم) إلى ضمير (هم) جدير بالملاحظة؛ لأنه لا يمكن أن يكون خطأ نحويا، إذ لا يمكن أن يتصور في ذلك الأسلوب الأدبي الكامل الذي يعد البرهان العظيم على دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فلو كان في الآية خطأ لكان تصحيحه بعد قليل أمرا ضروريا وسهلا وممكنا"[43].

ثم يزيد الأمر إيضاحا فيقول: "فإن لم يقع هذا من النبي الذي كان يقرأ القرآن لنفسه ولصحابته، فإنه يستتبع ألا يكون الخروج على القاعدة المطردة خطأ عنده، وهو يشهد بأن (محمدا) لم يكن لديه أي مقدرة على التصرف في النص القرآني"[44].

2- المجاز[45]: ومثاله ما ذكره مالك بن نبي عند قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩].

---

[42] **الالتفات**: هو العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو التكلم، أو على العكس. ينظر: معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة: القاهرة، دط، دت، ص32.

[43] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص164.

[44] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص164.

حيث يشرح المؤلف هذه الصورة البيانية فيقول: "ففي هذه الصورة الأخاذة يتجلى سطح الصحراء العربية المنبسط، والخداع الوهمي للسراب. فنحن هنا أمام عناصر مجاز عربي النوع، فأرض الصحراء وسماؤها قد طبعا عليه انعكاسهما، فليس ما نلاحظه مما يتصل بالظاهرة القرآنية التي تشغلنا، سوى ما نجده في الآية من بلاغة، حين تستخدم خداع السراب المغم، لتؤكد بما تلقيه من ظلال تبدد الوهم الهائل، لدى إنسان مخدوع، ينكشف في نهاية حياته غضب الله الشديد، في موضوع السراب الكاذب ...سراب الحياة"[46].

المطلب الخامس: توظيف العلوم والنظريات الحديثة

حيث أن مالك بن نبي رحمه الله في كتابه "الظاهرة القرآنية" يركز كثيرا على ضرورة مراعاة التطور والتقدم الذي وصلته البشرية في فهم نصوص القرآن الكريم، فتراه يصرح بـ "أن ضرورات التطور تقضي بتعديل منهج التفسير القديم تعديلاً، يناسب في حكمة وروية مقتضيات الفكر الحديث"[47].

وقد قام بتطبيق ذلك في مواضع من كتابه، حيث يعطي تفسيرات علمية لآيات قرآنية، ويذكر نماذج مما وافقت فيه المكتشفات العلمية ما سماه بـ: "الفكرة القرآنية"، ومن أمثلة ذلك:

1- ما ذكره من أن اكتشاف الطبقات العليا للهواء بفضل الطيران والبالونات قد مكن من إدراك "ظاهرة عضوية تنتج عن تمدد الهواء، إذ يشعر الصاعد في العلو ببعض الصعوبة في التنفس، ويحس بالضيق والانقباض"[48]؛ حيث "اقتبست الفكرة القرآنية من هذه الظاهرة استعارة بارعة، فيقول القرآن: ﴿ **فَمَن يُرِدِ**

---

[45] **المجاز اللغوي**: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي. والعلاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قد تكون المشابهة، وقد تكون غيرها، والقرينة قد تكون لفظية وقد تكون حالية. ينظر: البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف: القاهرة، دط، 1999م، ص71.

[46] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص295.

[47] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص57.

[48] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص288.

ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]"[49].

ثم يضرب المؤلف مثالا واقعيا لهذه الظاهرة العلمية فيقول: "ربما أمكننا أن نجزم بأن تسلق الجبال قد لفت نظر هواة التسلق إلى هذه الظاهرة، حتى قبل ارتياد الطبقات الجوية، فضلاً عن أن الآية لا تستخدم في الموازنة تعبير الصعود (في الجبال)، بل تستخدم صراحة تعبير الصعود (في السماء)، ونضيف إلى هذا أن مهد العبقرية العربية بلد ذو سطح منبسط، وسهول واسعة لا يفيد المرء منها تجربة، أو فكرة في تسلق الجبال، فنحن مجبرون أن نقرر هنا أيضاً اتفاقاً رائعاً للفكرة القرآنية مع الواقع العلمي"[50].

2- ومن الآيات التي يرى المؤلف بأن معانيها موافقة لمكتشفات ونظريات العلوم الحديثة قوله تعالى ﴿ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ ﴾ [الكهف: ٨٥ - ٨٦].

حيث يستعين المؤلف بخطوط الطول في تحديد المراد بـ ﴿ عَيۡنٍ حَمِئَةٖ ﴾ في الآية فيقول: "فلو أننا نظرنا إلى خط الطول الذي تقع عليه مكة، فإن مغرب الشمس سيكون على مدى تسعين درجة طولية إلى الغرب، وهذا الطول يمتد إلى نواحي خليج المكسيك، حيث يتفرع مجرى بحري.

هذا التيار البحري الدافئ هو الذي يحمل إلى شواطئ أوربا الشمالية ما يناسبها من الدفء المستمد من (عينه الحمئة أو الحامية[51]) وفي هذه الأنحاء نفسها حاول المهندس الفرنسي (جورج كلود George Claude)[52] استخدام الطاقة الحرارية في البحار، ونجح في ذلك نظريا"[53].

---

[49] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص288.

[50] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص288.

[51] **(عين حامية)**: هي قراءة ابن عامر والكسائي وحمزة. ينظر: التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تح: خلف بن حمود بن سالم الشغدلي، دار الأندلس: حائل بالمملكة العربية السعودية، ط1، 1436هـ/2015م، ص420.

[52] **جورج كلود George Claude**: كيميائي وفيزيائي فرنسي، ولد في باريس سنة 1870م، بعد تخرجه من الجامعة دخل عضوا في أكاديمية العلوم سنة 1924م، له العديد من الأبحاث والمكتشفات من أهمها: كيفية صناعة الهواء السائل، واستخدام طاقة مياه البحار الحرارية باستغلال الفارق بين سطح المياه وأعماقها، وكذا اكتشافه لأنبوب النيون للإضاءة سنة 1909م. سجنه الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. توفي سنة 1960م. ينظر: موسوعة المكتشفين والمخترعين، موريس شربل، دار الكتب العلمية: بيروت، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1411هـ/1991م، ص296.

ثم يعلق المؤلف على ذلك فيقول: "أو ليس هذا بالتحديد هو المكان الذي تغرب فيه الشمس بالنسبة لخط طول مكة الذي يعد بصورة ما خط طول الفكرة القرآنية؟. هذا أيضاً توافق عجيب"[54].

المطلب السادس: أسلوب الإجمال ثم التفصيل

وذلك بذكر الفكرة الرئيسية التي يدور حولها معنى الآية أو المقطع القرآني، ثم يُتبَع بعد ذلك بالتفصيل والتدقيق في المعاني الجزئية.

ومن أمثلة ذلك قول مالك بن نبي في سياق كلامه عن قوله تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]: "والفكرة الرئيسية هنا هي أن يعلن غدر المنافقين، وأن يكذبهم في مقالتهم"[55].

ثم يعمد المؤلف بعد ذلك إلى الجانب التفصيلي لهذه الفكرة الرئيسية، حيث قام أولا بتقطيع الآية إلى أربع جمل أو مقاطع قائلا: "فإذا ما طبقنا هذه الملاحظة على ترتيب أفكار الآية صارت هكذا:

(1) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾.

(2) ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ﴾.

(3) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ .

(4) ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾"[56].

ثم يأتي المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن معاني هذه المقاطع فيقول: "وبهذه الصورة تصبح الآية بالتدقيق كاملة، ومطابقة للتركيب العربي، فيما عدا القلب الذي طرأ على وضع الجملتين (3 و 4) لنردها إلى ترتيبها الطبيعي، ومع ذلك فربما نلاحظ أن الآية تتعرض في نسقها الجديد لنقد في الصميم، إذ تكون

---

[53] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص290.

[54] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص290.

[55] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص186.

[56] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص187-186.

برهاناً خطيراً ضد القيمة العلوية للوحي، لأن معنى الفقرة (4) كله قد أصبح في التنظيم الجديد تكذيباً، لا لغدر المنافقين، بل لإقرارهم وشهادتهم بأنه رسول الله، ففي التركيب القرآني للأفكار دقة مذهلة، لأن الفقرة الثالثة التابعة تؤكد أولاً صحة رسالة النبي- وهو ما شهد به المنافقون- قبل أن يعلن كذبهم في الفقرة الرابعة الرئيسية، هذا الترتيب الدقيق الذي يتميز بالعمق واليقظة البالغة يتنافى- كما يجب أن نكرر- مع الظروف النفسية والزمنية التي تبرق فيها (الوحدة الكمية) للقرآن، حتى كأنما هي ومضة خاطفة"[57].

الخاتمة:

من خلال تلك المحطات المختصرة التي تتبعناها مع المفكر مالك بن نبي رحمه الله في رحاب معاني بعض الآيات الكريمات، وفي ختام هذه الدراسة الموجزة، أسجل جملة من النتائج والتوصيات.

أما النتائج فأجملها في ما يأتي:

- كتاب الظاهرة القرآنية من أهم كتب مالك بن نبي التي عالج فيها ظاهرة الإعجاز القرآني.
- أظهرت الدراسة جانبا مهما من اطلاع المفكر مالك بن نبي رحمه الله بالعلوم الشرعية بشكل عام، وعنايته بمعاني الآيات وتفسيرها على وجه الخصوص.
- قدم مالك بن نبي رؤية تجديدية للمنهج التفسيري.
- أظهرت الدراسة كما معتبرا من المادة التفسيرية في كتاب: "الظاهرة القرآنية".
- أفادت الدراسة جملة من الملامح المنهجية في استخراج المعاني من الآيات القرآنية، من أهمها:
  - اعتماده القرآن الكريم والأثر.
  - عنايته بالجانب البلاغي للقرآن الكريم.
  - توظيفات مكتشفات العلوم الحديثة في بيان معاني الآيات.

وأما التوصيات:

[57] الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص186.

– فأوصي بضرورة العناية بالتراث التفسيري لعلماء الجزائر عامة، وبتراث المفكر مالك بن نبي التفسيري خاصة، وزيادة تمحيصه وتحليله.

– أوصي بدراسة الفكر التجديدي التفسيري عند مالك بن نبي في كتابه: "الظاهرة القرآنية".

قائمة المصادر والمراجع

1- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون: بيروت، ط1، 1429هـ/2008م.

2- إتمام الأعلام ذيل لكتاب الأعلام، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، دار صادر: بيروت، ط1، 1999م.

3- الأحاديث المختارة، ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي، تح: عبد الملك بن دهيش، دار خضر: بيروت، ط1، 1420هـ/2000م.

4- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين: بيروت، ط15، 2002م.

5- البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف: القاهرة، دط، 1999م.

6- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، دار البصائر: الجزائر، دط، 2007م.

7- التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس، دار النفائس: عمان، ط1، 1437هـ/2016م.

8- التيسير في القراءات السبع، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، تح: خلف بن حمود بن سالم الشغدلي، دار الأندلس: حائل بالمملكة العربية السعودية، ط1، 1436هـ/2015م.

9- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، تح: عبد الله بن عبد المحسن بن تركي، مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية: القاهرة، ط1، 1424هـ/200.م.

10- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الجيل: بيروت، دط، 1414هـ/1993م.

11- رشيد رضا صاحب المنار عصره وحياته ومصادر ثقافته، أحمد الشرباصي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، دط، 1389هـ/1970م.

12- سير أعلام النبلاء، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1402هـ/1982م.

13- طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد عمر، دار النوادر: الكويت، دط، 1421هـ/2010م.

14- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، تر: عبد الصابور شاهين، دار الفكر: دمشق، ط4، 1420هـ/2000م.

15- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان: الرياض، ط1، 1418هـ/1998م.

16- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم شمس الدين أبو بكر محمد بن أيوب الزرعي، تح: سيد إبراهيم، دار الحديث: القاهرة، ط1، 1412هـ/1992م.

17- معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية: بيروت، ط2، 1400هـ/1980م.

18- معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة: القاهرة، دط، دت.

19- مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تح: عدنان زرزور، [دون دار نشر]، ط2، 1392هـ/1972م.

20- منهج المدرسة العقلية في التفسير، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، مؤسسة الرسالة: بيروت، ط2، 1403هـ/1983م.

21- موسوعة المكتشفين والمخترعين، موريس شربل، دار الكتب العلمية: بيروت، دار الكتب العلمية: بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.

22- النور السافر عن أخبار القرن العاشر، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي، دار صادر: بيروت، ط1، 2001م.

البحوث والمقالات

1- إعجاز النص القرآني في فكر مالك بن نبي – الظاهرة القرآنية-، زينب بوتشيش، مجلة: أمارات، كلية: الآداب والفنون، جامعة: حسيبة بن بوعلي – الشلف-، المجلد: 2، العدد:1، مارس 2018م.

2- الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي مقاربة في المفهوم والإجراء، رابح طبجون، مجلة المعيار، كلية: أصول الدين، جامعة: الأمير عبد القادر بقسنطينة، المجلد:23، عدد: 46، مارس 2019م.